الفصل الثاني

لكي نكون أصلاء حقاً

- بين الأصالة والمعاصرة.
- ماذا تعني الأصالة هنا؟

١. ضرورة المعرفة والفهم لثقافتنا.

٢. الاعتزاز بالانتماء الإسلامي العربي.

٣. العودة إلى الأصول.

٤. إحياء السلفية المجدِّدة.

٥. الانتفاع الواعي بتراثنا.

* الإسلام فوق التراث.
* قراءة مستبصرة للتراث.
* قراءات متحيزة – أو موجهة – للتراث.

obeikandl.com

obeikandl.com

بين الأصالة والمعاصرة

السؤال الكبير الذي طرح نفسه علينا منذ أوائل نهضتنا ، واستفاقتنا على تفوق الغربِ الذي طالما أخذ عنا ، وتتلمذ علينا ، وكانت جامعاتنا موئلاً لطلابه ، وكانت كتبنا مراجع لدارسيه ، ثم ها هو اليوم يتغلب علينا عسكرياً ، ويتحكم فينا سياسياً ، ويتفوق علينا حضارياً ، هذا السؤال هو : كيف تكون العلاقة بيننا وبين هذا الوافد الجديد ؟ وبعبارة أخرى : كيف نوازن بين قديمنا وحديثهم ؟ أو بين تراثنا الأصيل ومعاصرهم الدخيل ؟

أنستطيع أن نكون أصلاء ومعاصرين في الوقت ذاته ؟ أي نحقق ذاتنا ، ونعيش عصرنا ؟ أم لا بدّ لنا أن نختار بين أمرين : إما أن نكون أصلاء ، ونضحّي بالمعاصرة ، أو نكون معاصرين ونضحّي بالأصالة ؟

بتعبير آخر : هل العلاقة بين التراث القديم والوافد الحديث ـ أو بين الأصالة والمعاصرة ـ هي علاقة التضادّ والتناقض ؟ فلا أمل في الجمع بينهما ، أو هي علاقة التنوّع والتكامل وهنا يمكن الجمع بينهما ؟

السؤال خطير ، والجواب مهم ؛ وخصوصاً في هذه المرحلة التي تسعى فيها أمتنا لتحقيق ذاتها ، بعد أن اكتشفت ذاتها التي غابت أو غُيِّبت عنها زمناً .

وقد أجاب عنه أناس بافتراض التناقض بين الأمرين ، اختار فريق التراث والأصالة ، وعاشوا غرباء عن العالَم والزمان .

واختار آخرون العصر والحداثة ، وعاشوا غرباء عن الأهل والمكان .

وبقي آخرون متردّدين بين أولئك وهؤلاء .

ولكن الموقف الصحيح هو الذي يُتخذ بعد الدراسة المتأنية لكل من الأمرين المعروضين ، فالحكم على الشيء فرع عن تصوره .

والتسرُّع في مثل هذه المواقف الفكرية قد يوقع صاحبه في هوّة لا يخرج منها إلا ما شاء الله .

وقد عرض علينا أحد المفكرين المرموقين من العرب كيف سقط في هذا الخطأ الشنيع من قديم ، حين تسرّع في الجواب بغير علم عن هذا السؤال ؛ إنه الدكتور زكي نجيب محمود ، الذي يحكي لنا ذلك في كتابه «تجديد الفكر العربي» حين واجه السؤال عن طريق الفكر العربي المعاصر ، يضمن له أن يكون عربيّاً حقاً (أي أصيلاً) ومعاصراً حقّاً :

«إذ قد يبدو للوهلة الأولى أن ثمة تناقضاً أو ما يشبه التناقض بين الحدّين ، لأنه إذا كان عربياً صميماً ، اقتضى ذلك منه أن يغوص في تراث العرب الأقدمين حتى لا يدع مجالاً لجديد — وإن من أبناء الأمة العربية اليوم مَن قد غاصوا هذا الغوص الذي لم يُبق لهم من عصرهم ذَرّة هواء يتنفسونها — وأما إذا كان معاصراً صميماً ، كان محتوماً عليه أن يغرق إلى أذنيه في هذا العصر بعلومه وآدابه وفنونه وطرائق عيشه ، حتى لا تبقى أمامه بقية ينفقها في استعادة شيء من ثقافة العرب الأقدمين .

نعم ، قد يبدو للوهلة الأولى أن بين العربية والمعاصرة تناقضاً أو مايشبه التناقض ، ولذلك يجيء السؤال الذي يلتمس طريقاً يجمع الطرفين في مركّب واحد ، وكأنما هو سؤال يطلب أن تجتمع مع الماء جذوة نارة ؛ فهل بين الطرفين مثل هذا التعارض حقّاً ؟ أو أن ثمة طريقاً يجمع بينهما ؟ ذلك هو السؤال» .

يقول الدكتور : «ولقد تعرضتُ للسؤال منذ أمد بعيد ، ولكني كنت إزاءه من المتعجلين الذين يسارعون بجواب قبل أن يفحصوه ويمحّصوه ليزيلوا منه ما يتناقض من عناصره ؛ فبدأتُ بتعصب شديد لإجابة تقول : إنه لا أمل في حياة فكرية معاصرة إلا إذا بترنا

التراث بـتراً ، وعشنا مع مَن يعيشون في عصرنا علماً وحضارةً ، ووجهة نظر إلى الإنسان والعالَم ، بل إني تمنيت عندئذٍ أن نأكل كما يأكلون ، ونجدّ كما يجدّون ، ونلعب كما يلعبون ، ونكتب من اليسار إلى اليمين كما يكتبون ! ! على ظنٍّ مني آنئذٍ أن الحضارة وحدة لا تتجزأ ، فإما أن نقبلها من أصحابها ــ وأصحابها اليوم هم أبناء أوربا وأمريكا بلا نزاع ــ وإما أن نرفضها ، وليس في الأمر خيار بحيث ننتقي جانباً ونترك جانباً ، كما دعا إلى ذلك الداعون إلى اعتدال ؛ بدأت بتعصب شديد لهذه الإجابة السهلة ، وربما كان دافعي الخبيء إليها هو إلمامي بشيء من ثقافة أوروبا وأمريكا ، وجهلي بالتراث العربي كاد أن يكون تامّاً ، والناس ــ كما قيل بحق ــ أعداء ما جهلوا .

ثم تغيرت وقفتي مع تطور الحركة القومية ، فما دام عدونا الألدّ هو نفسه صاحب الحضارة التي توصف بأنها معاصرة ، فلا مناص من نبذه ونبذها معاً ، وأخذت أنظر نظرة التعاطف مع الداعين إلى طابع ثقافي عربي خالص ، يحفظ لنا سماتنا ويردّ عنا ما عساه أن يجرفنا في تياره فإذا نحن خبرٌ من أخبار التاريخ ، مضى زمانه ولم يبق منه إلا ذكراه : لكنني حين أخذت أتعاطف مع هذه النظرة العربية الخالصة ، كنت إزاءها بلا حول ؛ فهذا مجال لم يكن لي فيه نصيب يذكر ، فلا أنا قد أتيحت لي ــ أيام الدرس ــ فرصةٌ كافية للإلمام بقسط موفور من تلك الثقافة العربية الخالصة ــ اللّهم إلا النزر اليسير الذي كان يتلقاه التلميذ في المدارس المدنية ــ ولا أنا أستطيع أن أجد الفراغ لأتوفر على الدرس من جديد .

وأحمد الله أن أتاح لي آخر الأمر هذا الفراغ ، كما أتاح لي مكتبة عربية أقضي فيها بعض ساعات النهار»[1] يقصد مكتبة جامعة الكويت التي كان يعمل بها أستاذاً للفلسفة .

(١) انظر : «تجديد الفكر العربي» ١٢- ١٤ ، طبع دار الشروق ، القاهرة .

هكذا عبر الرجل عن موقفه بصراحة وشجاعة : أنه لا أمل في حياة فكرية معاصرة إلا إذا بترنا التراث بتراً ، وعشنا مع مَن يعيشون في عصرنا علماً وحضارة ، ووجهة نظر إلى الإنسان والعالَم ، نأكل كما يأكلون، ونجدّ كما يجدّون ، ونلعب كما يلعبون ، ونكتب من اليسار إلى اليمين كما يكتبون!!

وإذا كان الدكتور زكي نجيب محمود قد اكتشف خطأه في التسرع بالجواب عن السؤال الكبير ، قبل أن يعرف شيئاً عن تراث أمته وثقافتها ، وطفق يعالج هذا الخطأ بالقراءة والدراسة للتراث ، بعد أن فات ما فات من العمر ، وأصدر عدة كتب ودراسات حول الموضوع[1] ، فإن كثيرين من تلاميذ الغرب لم يكتشفوا ما اكتشف من خطأ ، وربما اكتشفوه ولم تسعفهم الشجاعة ليعلنوه ، ولم يواتهم العزم ليعالجوه ، وربما كانت لهم مصالح وارتباطات وولاءات تحتم عليهم أن يظلوا مُصرِّين على ما هم عليه ، مدافعين عنه بكل ما يستطيعون .

وثمت آخرون راضون كل الرضا بموقفهم التبعي المقلد للغرب ، اقتناعاً منهم لا خوفاً ولا طمعاً ، كمن وصف الله تعالى بقوله : ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً﴾ [فاطر : ٨] .

إن الموقف العلمي السليم أن نتبين : ماذا تعني الأصالة ؟ أو ماذا يُطلب منا لكي نكون أصلاء حقاً ؟ وماذا تعني المعاصرة ؟ أو ماذا يُطلب منا لكي نكون معاصرين حقاً؟ ثم ننظر : هل يوجد تناقض بين الأمرين ؟ بحيث إذا قُبِلَ أحدهما رُفِضَ الآخر ؟ أو أن كلاً منهما يكمل الآخر ، ولا بد أن نعيش بهما معاً ؟ هذا ما نحاول الإجابة عنه فيما يلي من صحائف .

* * *

(١) منها : «تجديد الفكر العربي» ، و«في تحديث الثقافة العربية» ، و«ثقافتنا في مواجهة العصر» ، وغيرها .

ماذا تعني الأصالة هنا ؟

إن «الأصالة» التي نؤمن بها ، وندعو إليها وصفاً أساسيّاً لثقافتنا ، ليست محض كلمة تقال ، ولا دعوى تدّعى ، إنها حقيقة ثابتة ، لها معانٍ تقوم عليها ، ودلائل تنبئ عنها .

وتركيزنا على وصف ثقافتنا العربية الإسلامية بالأصالة ليس لمجرد التباهي والفخر ، بل هو مؤشر أو مفتاح لمجموعة من المعاني الكبيرة ، يجب التنبيه عليها :

● ضرورة المعرفة والفهم لثقافتنا :

وأول هذه المعاني التي تتطلبها الأصالة هي المعرفة والفهم : فهم هذه الثقافة بخصائصها الذاتية ، ومكوّناتها الأساسية . فهمها من مصادرها الأصلية ، وليس من المصادر الهامشية أو المدخولة ، أو المنحولة ، أو الواهية .

فهمها من أهلها الثقات لا المجروحين ، ناهيك بغير أهلها ، من الدخلاء عليها ، الغرباء عنها .

فهمها بأدواتها ومناهجها الخاصة ، لا بأدوات ومناهج غريبة عنها ، مفروضة عليها .

لقد رأينا مَن يرفض رواية صحيحي البخاري ومسلم ، ويأخذ برواية كتاب «الإمامة والسياسة» المعزوّ لابن قتيبة ، وهو كتاب لقيط ، منحول لابن قتيبة .

رأينا مَن يطعن في أسانيد المُحَدِّثين ، ويعتمد أسانيد كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني .

رأينا مَن يستند إلى روايات عن عصر الفتنة الكبرى ذكرها الطبري مثلاً ، بأسانيد واهية مردودة ، فاعتبر هؤلاء مجرد ذكرها من عالِم كبير

توثيقاً لها ، وهو قد برئ من العهدة بذكر سندها : وعلى الباحث أن يرجع إلى علم الرجال ، ليعرف إن كان الراوي معدّلاً أو مجروحاً . وقد بيَّن في مقدمته[1] لماذا اتبع هذا المنهج ، ولم يدقق كما دقق في كتب الآثار أو كتب الفقه ، التي يُعْرفُ بها الحلال والحرام ؟

إن كتب الحديث ، المروية بالأسانيد نفسها ، فيها الضعيف والموضوع ، فكيف بغيرها ؟

رأينا مَن يحكم على تاريخ الأمة ـ وخصوصاً في أفضل عصورها ـ معتمدين على ما تذكره كتب الأدب والنوادر والأقاصيص ، التي تروي الغثّ والسمين ، والصدق والكذب ، وكأن بحسبهم أنهم وجدوه في كتاب ، ولو كان «ألف ليلة وليلة» !

رأينا من يعتبر المستشرقين حُجَّةً في كل ما يكتبون ، ولا يحاول أن يمتحن آراءهم ، ويناقش استدلالاتهم ، ويقارن دعاويهم بعضها ببعض . ولو فعل لوجد الكثير الكثير من التهافت والتناقض والخطل المبين ، والدعاوى العريضة بغير برهان . ولتبيَّن له أن ثمّت نقاط ضعف أساسية فيما يكتبه المستشرقون عن ثقافتنا ، نبّهنا عليها في بعض ما كتبناه من قبل ، هي :

أولاً : عدم تمكنهم من اللغة العربية ، وتذوقهم لها ، وتفهمهم لدلالاتها المتنوعة ، وهذا لا بد أن يكون له انعكاسه على مدى فهمهم للمصادر الإسلامية الأصيلة ، وخصوصاً القرآن العزيز ، والسُنَّة المشرفة ، ولهذا كان فهمهم للإسلام ورسالته مشوشاً ومنقوصاً .

ثانياً : عقدة تفوق الإنسان الغربي ، والعقل الغربي ، والحضارة الغربية ، والنظر إلى الغرب أنه سيد العالَم ، وأن أوروبا أم الدنيا ، وأن التاريخ من الغرب بدأ ، وإليه يعود .

---

(١) انظر : «تاريخ الطبري» : ١/٧ ، ٨ ، طبع دار المعارف .

ثالثاً : الانطلاق من مسلّمات غير قابلة للامتحان عند الإنسان الغربي ، وهي أن القرآن ليس كلام الله ، وأن محمداً ليس رسول الله ، فهو قد كوّن فكرته مقدَّماً قبل أن يبحث ، ثم هو يسعى في بحثه للاستدلال عليها بكل ما يمكنه ، وفي سبيل هذا يقبل الواهيات من الروايات ، ويُصدِّق الأكاذيب ، ويُضخّم الوقائع الصغيرة ، ويجعل من الحبّة قبّة ، ومن الشبهة حُجَّةً ، ويستدل بما ليس بدليل ، ويرفض ما يخالف وجهته وإن كان في وضوح الشمس .

رابعاً : أن دراسات المستشرقين كثيراً ما تكون موجهة لخدمة أهداف عملية ، مطلوبة منهم لهذه الدولة أو تلك . وكثيراً ما تُرصد الملايين لتحقيق هذه البحوث ، وهذا ما يجعل هذه الدراسات غير مبرأة من الغرض[1] .

وقد بين العلامة الأستاذ محمود محمد شاكر في رسالته القيمة النافعة «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» أن المستشرق الذي يدخل ثقافتنا دارساً مناقشاً ، لا يمكنه أن يتحرر من ذاتيته ، وسلطان لغته وثقافته ودينه ، وأن يكون محايداً موضوعيّاً فيما يدرسه ويكتبه ، وذلك من عدة طرق ، تجعل مهمته صعبة كل الصعوبة ، بل تكاد تكون مستحيلة على مثله :

«فمن طريق «اللغة» التي نشأ فيها صغيراً ، فإنه يسدّده أو يتهدّده ، الإحاطة بأسرار «اللغة» وأساليبها الظاهرة والباطنة ، وعجائب تصاريفها التي تجمعت وتشابكت على مرّ القرون البعيدة ، فصارت ألفاظها وتراكيبها الموروثة والمستحدثة تحمل ـــ من كلّ زمان مضى وكل جيل سبق ـ نفحة من نفحات البيان الإنسانيّ بخصائصه المعقّدة

(١) انظر : كتابنا : «أولويات الحركة الإسلامية» ص١٨٣ .

والمكتّمة ، أو خصائصه السمحة والمستعلنة . وبين تمام الإحاطة باللغة وقصور الإحاطة بها ، مزالِقُ تزلّ عليها الأقدام ، ومخاطر يُخْشَى معها أن تنقلب وجوه المعاني مشوّهة الخِلْقَة مُستَنْكرَة المَرْآة ، بقدر بُعْدها عن الأسرار الخفية المُسْتَكِنّة في هذه الألفاظ والتراكيب .

ومن طريق «الثقافة» ، فإن «الثقافة» ــ فاعْلَمْ ــ تكاد تكون سراً من الأسرار الملثّمَة في كل أمة من الأمم وفي كل جيل من البَشر . وهي في أصلها الراسخ البعيد الغَوْر ، معارف كثيرةٌ لا تحصى ، متنوِّعة أبلغَ التنوع لا يكاد يُحاط بها ، مطلوبةٌ في كل مجتمع إنساني **للإيمان** بها أولاً عن طريق العقل والقلب ، ثم **للعمل بها** حتى تذوب في بُنيان الإنسان وتجري منه مجرى الدّم لا يكاد يُحَسّ به ، ثم **للانتماء** إليها بعقله وقلبه وخياله انتماءً يحفظه ويحفظها من التفكّك والانهيار ، وتحوطُه ويحوطها حتى لا يفضي إلى مفاوز الضياع والهلاك . وبين تمام الإدراك الواضح لأسرار «الثقافة» وقصور هذا الإدراك ، منازلُ تلتبس فيها الأمور وتختلط ، ومسالك تَضِلّ فيها العقول والأوهام حتى ترتكس في حمأة الحيرة ، بقدر بُعْدها عن لباب هذه «الثقافة» وحقائقها العميقة البعيدة المتشعِّبة .

ومن طريق «الأهواء» وهي التي تسري في خفاء وتدبّ ، إلا أنها لا تدبّ ولا تأتيك إلاّ متبرّجة في تمام زينتها من «اللغة» ومن «الثقافة» ، مترَدّية برداء براءة القصد وخُلوص النية ، متحليةً بجواهر الدقة والاستيعاب والتمحيص والمهارة والحِذق ، حتى يتاح لصاحبها أن يقتنص غفلتك ، ويتلعّب عندئذٍ بك وبعقلك ما شاء له التلعّب ، من حيث يوهمك أنه قد استوعب لك جمع «المادة» ، ويهوّل عليك تهويل السحرة بما يحشد تحت عينيك ويستكثر ، مخفياً عنك بتمويهه من «المادة» ما قد يبطل ما أراد به سحر عينيك واهتبالَ غفلتك ،

ثم استلحاق عقلك بعقله ، إذ أنت عندئذٍ مفتون بالزينة المتبرّجة ، وبتحاسين رداء البراءة وخلوص النية ، وبالحليّ النفسية المتلألئة التي يتطلّبها «ما قبل المنهج» بشطريه : «المادة» ، و«التطبيق» إذ أنت هائم معه ، مريد أو غير مريد ، (في إثر كل قبيح وجهه حسن)[1] كما يقول أبو الطيب» [2] اهـ .

المثقف «الأصيل» حقاً مَن وفق لمعرفة هذه الثقافة من مصادرها الحقة ، واستقاها من ينابيعها الصافية ، وعَلَّ منها ونهل ، وأخذ منها بقدر ما اتسع واديه : ﴿فَسالَتْ أَودِيَةٌ بِقَدَرِها﴾ [الرعد : ١٧] .

أما مَن جهل هذه الثقافة ، وحُرِم من السياحة في رحابها ، أو التنزه في رياضها ، فموقفه منها موقف الجاهل لما يجهله . وقد قال العرب : مَن جهل شيئاً عاداه . وفي القرآن تصديق ذلك حيث يقول الله تعالى : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَم يُحِيطُواْ بِعِلمِهِ ولَمَّا يَأْتِهِم تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس :٣٩] .

وكثير من مثقفي عصرنا من حملة الألقاب الكبيرة من هذا الصنف ، ومنهم مَن شب على ذلك وشاب عليه ، ومات عليه .

ومنهم مَن أراد الله به خيراً ، ففتح له باباً إلى هذه الثقافة ، جعله يُغيِّر رأيه ، ويُعَدِّل من موقفه كثيراً أو قليلاً ، معترفاً بذلك في شجاعة تُذكر له فتُشكر .

من هؤلاء الأستاذ إسماعيلُ مظهر ، صاحب مجلة «الفصول»

---

(١) انظر : «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» للأستاذ شاكر ، وبخاصة الصفحات ٤١-٤٤ ، طبع دار الهلال بمصر .

(٢) هو من قوله يذكر أهل العشق :

مما أضرّ بأهل العشق أنهمُ ... هَوَوْا، وما عرفوا الدنيا وما فطنوا

تفنى عيونهُمُ دمعاً، وأنفسهم ... في إثر كل قبيح وجهُهُ حسنُ

ومترجم كتاب «أصل الأنواع» لدارون ، وقد كان داروينيّاً خالصاً ، ثم كتب في (سنة ١٩٦٠م) كتابه «الإسلام أبداً» فانتقل -كما يقول الدكتور حسن حنفي[1] - من طرف إلى طرف ، ومن نقيض إلى نقيض ، ومن الحديث إلى القديم ، ومن الجديد إلى التراث ، ومن الوافد إلى الموروث .

ومن هؤلاء الدكتور مصطفى محمود الذي بدأ شاكاً أو ملحداً ، معتنقاً للفكر الماركسي المادي ، كما بدا ذلك في كتابه «الله والإنسان» ، ثم انتقل من الجحود إلى اليقين ، ومن الشك إلى الإيمان ، ومن الماركسية إلى الإسلام ، وأصدر في ذلك كتباً ، وحرَّر مقالات ، وقدّم برنامجه الشهير في التلفزيون «العلم والإيمان» . بل حاول الاتجاه نحو فهم عصري للقرآن ، لم يسلم من بعض الشطط ، وهو ما أنكره عليه كثيرون من أهل الاختصاص .

ومن هؤلاء ـــ كما ذكرنا من قبل ـــ الدكتور زكي نجيب محمود ، الذي أعلن ذلك في صراحة في مقدمة كتابه «تجديد الفكر العربي» قال : «لم تكن قد أتيحت لكاتب هذه الصفحات في معظم أعوامه الماضية فرصة طويلة الأمد ، تمكنه من مطالعة صحائف تراثنا العربي على مهل ، فهو واحد من ألوف المثقفين العرب ، الذين فتحت عيونهم على فكر أوروبي ـ قديم أو جديد ـ حتى سبقت إلى خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الإنساني الذي لا فكر سواه ، لأن عيونهم لم تفتح على غيره لتراه ، ولبَثتْ هذه الحالُ مع كاتب هذه الصفحات أعواماً بعد أعوام : الفكر الأوروبي دراسته وهو طالب ، والفكر الأوروبي تدريسه وهو أستاذ ، والفكر الأوروبي

(١) من بحث له عن «الموقف من الغرب : الماضي ، والحاضر ، والمستقبل» قدمه لمؤتمر «الثقافة العربية» بالقاهرة ، الصيف الماضي (سنة ١٩٩٢) .

مسلاته كلما أراد التسلية في أوقات الفراغ ؛ وكانت أسماء الأعلام والمذاهب في التراث العربي لا تجيئه إلا أصداء مفككة متناثرة ، كالأشباح الغامضة يلمحها وهي طافية على أسطر الكاتبين .

«ثم أخذته في أعوامه الأخيرة صحوة قلقة ؛ فلقد فوجئ وهو في أنضج سنيه ، بأن مشكلة المشكلات في حياتنا الثقافية الراهنة ، ليست هي : كم أخذنا من ثقافات الغرب وكم ينبغي لنا أن نزيد ؛ إذ لو كان الأمر كذلك لهان ، فما علينا عندئذٍ إلا أن نضاعف من سرعة المطابع ، ونزيد من عدد المترجمين ، فإذا الثقافات الغربية قد رصت على رفوفنا بالألوف بعد أن كانت ترص بالمئين ، لكن لا ، ليست هذه هي المشكلة وإنما المشكلة على الحقيقة هي : كيف نوائم بين ذلك الفكر الوافد الذي بغيره يفلت منا عصرنا أو نفلت منه ، وبين تراثنا الذي بغيره تفلت منا عروبتنا أو نفلت منها ؟ إنه لمحال أن يكون الطريق إلى هذه المواءمة هو أن نضع المنقول والأصيل في تجاور ، بحيث نشير بأصابعنا إلى رفوفنا فنقول : هذا هو شيكسبير قائم إلى جوار أبي العلاء ؛ فكيف إذن يكون الطريق ؟

استيقظ صاحبنا ـ كاتب هذه الصفحات ـ بعد أن فات أوانه أو أوشك ، فإذا هو يحس الحيرة تؤرقه ، فطفق في بضعة الأعوام الأخيرة ، التي قد لا تزيد على السبعة أو الثمانية ، يزدرد تراث آبائه ازدراد العجلان ، أخذ صاحبنا ـ وما يزال ـ يعب صحائف التراث عبّاً سريعاً ، والسؤال ملء سمعه وبصره : كيف السبيل إلى ثقافة موحدة متسقة يعيشها مثقف حي في عصرنا هذا ، بحيث يندمج فيها المنقول والأصيل في نظرة واحدة» ؟[1] .

(١) مقدمة كتاب «تجديد الفكر العربي» للدكتور زكي نجيب محمود ، طبع دار الشروق ـ بيروت .

ولا يزال تيار الأصالة يكسب يوماً بعد يوم من أنصار «التغريب» الخلصاء أو المهجّنين ، من مختلف مدراسه المادية أو العلمانية ، الماركسية أو الليبرالية ، ويضيف إلى رصيده جديداً ، مسلّحاً بأسلحة الغرب ذاته ، قادراً على الدفاع والهجوم بفكر العصر ، ومناهج العصر .

بَيْد أن الذي نركز عليه هنا : أن الأصالة الحقة لا تكون بمجرد الدعوى أو الإعلان ، بل لا بد من الاطلاع الكافي على أصول ثقافتنا ، مما لا يسع المثقف العربي المسلم جهله .

ليس من الضروري أن يقرأ كل ما قرأه مثلاً الأستاذ محمود شاكر ، حين بدأ رحلته مع التراث وثقافته ، مما حدثنا عنه في مقدمة كتابه عن «المتنبي» ونشرته «دار الهلال» في «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» (١) .

لكن هنا حدود دنيا لمن يريد أن يتعرف على هذه الثقافة ، ويفتح مغاليقها ، ويفقه سرها .

وفي مقدمة ذلك : اللغة العربية وعلومها وآدابها .

ثم تأتي علوم الشريعة بشتّى فروعها : التفسير والعلوم القرآن ، والحديث وعلومه ، والفقه وأصوله ، والعقيدة وما يتصل بها ، والتصوف والأخلاق .

وفي كل علم من هذه العلوم أصول وفروع ، وله مداخل

(١) انظر : الفقرات : ١ ، ٣ ، ١٠ من الرسالة المذكورة ــ صفحات ١٠-١٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ــ وفيها ذكر أنه قرأ كل ما وقع تحت يده من هذا الإرث العظيم الضخم المتنوع ، حتى قرأ الفلسفة القديمة ، والحساب القديم ، والجغرافية القديمة ، وكتب النجوم ، وصور الكواكب ، والطب القديم ، ومفردات الأدوية ، وحتى قرأ البيزرة والبيطرة والفراسة . . إلخ ، لا ليتمكن من هذه العلوم ، بل ليلاحظ ويتبين ، ويزيح الثرى عن الخبيء والمدفون كما قال .

ومفاتيح ، وفيه مدراس ومذاهب ، وله مصادر ومراجع ، تولّدت منها متون وشروح ، وحواشٍ ، منها المبسوط ، ومنها الوسيط ، ومنها الوجيز ، ومنها الخلاصة .

أضف إلى ذلك السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي العام ، وتاريخ الطبقات والتراجم العامة والخاصة ، وتاريخ العلوم ومصادرها .

وليس مطلوباً ولا ممكناً أن يتعمق «المثقف الأصيل» في كل هذه المعارف ، ويسبر أغوارها ، وإنما ينبغي أن يلم بها ولو إلمامة سريعة ، على نحو ما قالوا عن الأديب : هو مَن يعرف شيئاً عن كل شيءٍ ، بخلاف العالِم فهو مَن يعرف كل شيء عن شيء .

والمثقف في عصرنا هو الأديب في العصور الماضية .

* *

● **الاعتزاز بالانتماء الإسلامي العربي :**

وثاني ما تتطلبه الأصالة منا هو : الاعتزاز بانتمائنا إلى الإسلام المؤثر الأول في صنع هذه الثقافة ، والذي وجّهها وجهته ، وصبغها صبغته : ﴿**صِبْغَةَ اللهِ ومَن أَحسَنُ مِن اللهِ صِبغَةً**﴾ [البقرة : ١٣٨] .

هو الذي حدد الأهداف ورسم المناهج ، وأعطى الحوافز وأرسى الدعائم ، وربّى الإنسان الذي يفكر ويريد ويتحرك في ضوء كتابه الهادي للتي هي أقوم ، وسُنّة رسوله الذي جعله الله أسوة حسنة للمؤمنين ، وختم برسالته كل رسالات السماء .

هذا الاعتزاز بالانتماء الإسلامي هو واجب كل مسلم رضي بالله تعالى ربّاً ، وبالإسلام ديناً وبالقرآن إماماً ، وبمحمدٍ ﷺ نبيّاً ورسولاً .

فهو يعتز بنعمة الإسلام : ﴿**اليَومَ أَكمَلتُ لَكم دينَكم وأَتمَمتُ عَلَيكم نِعمَتي ورَضيتُ لَكم الإِسلامَ ديناً**﴾ [المائدة : ٣] . إنه دين

الله الواحد ، دين الرسل جميعاً ، الذي لا يقبل الله ديناً غيره : ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسلامُ**﴾ [آل عمران : ١٩] . وهو يعتز برسالة محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿**لَقَد مَنَّ اللهُ على المُؤمِنِينَ إذ بَعَثَ فيهم رَسولاً مِن أَنفُسِهم يَتْلوا علَيْهم آياتِه ويُزَكِّيهم وَيُعَلِّمُهم الكِتابَ والحِكمَةَ وإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾ [آل عمران : ١٦٤] .

إنه الرسول الخاتم الذي بعثه مُصدِّقاً لما بين يديه ، ومصحّحاً لما حُرِّف وبُدِّل من الرسالات ، ومتمّماً لما جاء بها مما كان مناسباً للزمان والمكان وحال الإنسان ، فكان عنوان رسالته التيسير لا التعسير ، والتبشير لا التنفير ، ورفع الحرج عن الدين ، والعنت عن المكلفين ،وكان وصف رسالته في كتب أهل الكتاب من التوراة والإنجيل ، أنه : ﴿**يَأمُرُهم بالمَعروفِ وينهاهم عَنِ المُنكَرِ ويُحِلُّ لَهمُ الطَّيِّباتِ ويُحَرِّمُ عَلَيهمُ الخَبائِثَ ويَضَعُ عَنهم إِصْرَهم والأَغلالَ الَّتي كانَتْ عَلَيهِم**﴾ [الأعراف : ١٥٧] . وهو يعتز بأعظم كتاب أنزله الله ، وهو القرآن ، الذي ﴿**لا يَأتيهِ الباطِلُ مِن بَينِ يَدَيهِ ولا مِن خَلْفِه تَنْزيلٌ مِنْ حَكيمٍ حَميدٍ**﴾ [فصلت : ٤٢] . هو دستور الخالق لإصلاح الخلق ، وقانون السماء لهداية الأرض : ﴿**إِنَّ هَذا القُرْآنَ يَهدي لِلَّتي هيَ أَقْوَمُ**﴾ [الإسراء : ٩] . إنه الكتاب الذي تحدَّى العرب فأعجزهم ولا يزال تحديه قائماً ، وإعجازُه متجدِّداً ، وهدايتُه دائمةً إلى قيام الساعة .

وهو يعتز بانتسابه إلى «الأمة الوسط» التي بوأها الله مكان الشهادة على سائر الأمم : ﴿**وكَذَلِكَ جعَلناكم أُمَّةً وَسَطاً لِّتكونوا شُهَداءَ على النَّاسِ ويَكونَ الرَّسولُ علَيكم شَهيداً**﴾ [البقرة :

١٤٣](١) ، ﴿كنتم خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاسِ تَـأمُرونَ بِالـمَعْروفِ وتَنهَونَ عَنِ الـمُنكَرِ وتؤْمِنونَ بِاللهِ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

فهي أمة دعوة ورسالة ، وليست أُمة عنصرية منغلقة على نفسها ، كبني إسرائيل ، أمة هداية وليست أُمّة جباية .

ولكن العربي يضيف إلى هذا الاعتزاز اعتزازاً آخر ، بأنه ينتمي إلى أهل رسول الله ﷺ ، ويتكلم بلغة القرآن ويفهم عن الله ورسوله دون ترجمان . ويعيش في أرض تعتبر مأرز الإسلام ، ومعقله ، قريباً من مقدسات الإسلام ، ومساجد الإسلام الكبرى ، التي لا تُشَدّ إلا إليها الرحال . يقول الله تعالى لرسوله : ﴿فاستَمسِكْ بالذِي أوحِيَ إلَيكَ إنَّكَ على صِراطٍ مُستَقيمٍ * وإنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ ولِقَومِكَ وسَوْفَ تُسْئَلُونَ﴾ [الزخرف : ٤٣-٤٤] . معنى «ذِكْرٌ لَكَ» : أي : فخر ومجد لك ولقومكَ ، تذكركم به الأمم . ويقول سبحانه : ﴿لَقَد أنزلْنا إلَيكم كِتاباً فيهِ ذِكرُكم أفَلاَ تَعْقِلونَ﴾ [الأنبياء : ١٠] . أي : فيه شرفكم وفخركم تُذكرون به أبداً .

هذا الاعتزاز بانتمائنا الإسلامي العربي ، هو مقتضى الأصالة ، فالأصيل هو مَن كان له أصل يرجع إليه ، ونسب يعول عليه ، وأهل يحتمي بهم ويلجأ إليهم ، إذا عدا عليه عادٍ ، أو استخف بحرماته مستخفّ .

أما الدعيّ الزنيم ، فليس له ما يعتز به ، أو ينتمي إليه ، ويستوي عنده الشريف والوضيع ، والأصيل والدخيل ، والنسيب واللقيط ، بل لعله يفضل الثاني على الأول ، دفاعاً عن خسته ،

---

(١) انظر : تفسير هذه الآية من «ظلال القرآن» للشهيد سيد قطب لتتبين فيها مظاهر الوسطية المادية والمعنوية التي تميزت بها هذه الأمة ، وراجع خصيصة الوسطية من كتابنا «الخصائص العامة للإسلام» ، طبع مكتبة وهبة ، والرسالة .

obeikandi.com

وتبريراً لوضاعته ، من حيث يشعر أو لا يشعر .

وقد نقلنا عن عمر الأول : ابن الخطاب ، وعن عمر الثاني : ابن عبد العزيز ما ينبئ عن هذا الاعتزاز .

وننقل هنا ما يؤكّد هذا من كلمات ربعي بن عامر أمام رستم قائد جيوش الفُرْس ، وهي كلمات كأنها نور من الكلام أو كلام من النور ، كما يقول الرافعي رحمه الله . فقد سأله رستم : مَن أنتم ؟ فقال ربعي رضي الله عنه : «نحن قوم ابتعثنا الله لنُخرجَ مَن شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[1] .

بهذه الكلمات القليلة لخص هذا الصحابي فلسفة الإسلام وأهدافه الكبرى في حياة البَشرية ؛ إنها رسالة تحرير وتطهير ، وإنقاذ وإصلاح .

هذا هو الاعتزاز الذي نريده من المثقف العربي المسلم ، الذي ينتمي إلى ثقافة العرب والمسلمين ، ويشعر أنه عضو حي في جسم هذه الأمة العظيمة .

نريد من العربي المسلم أن يتحرر من عقدة النقص التي يعاني منها بعض الناس تجاه الثقافة الغربية ، والحضارة الغربية ، واللغات الغربية ، والتقاليد الغربية ، والأزياء الغربية ، حتى الرذائل الغربية والمنكرات الغربية!!

أجل . . من الناس مَن يحمرّ وجهه خجلاً إذا لم يشارك القوم في شرب الخمر ـ إذا كان ضيفاً ، وفي تقديمها إذا كان مضيفاً ـ وفي مراقصة امرأة صديقه ، ومراقصة صديقه لامرأته ، على أنغام

---

(١) انظر : تاريخ الطبري ٣/٥١٧- ٥٢٩ ، طبع دار المعارف ، وتأمل فيها مواقف زهرة بن الحوية ، وربعي بن عامر ، وحذيفة بن محصن ، والمغيرة بن شعبة ، وفود سعد بن أبي وقاص ـ وكلماتهم المضيئة أمام رستم ورجاله ، لتجد فيها اليقين والثقة والاعتزاز البالغ .

الموسيقى الصاخبة!

نريد من العربي المسلم أن يكون محور اعتزازه الإسلام قبل أي شيء آخر ، أي قبل العرق والقبيلة ، والإقليم والطبقة ، وأن ينشد مع العربي القديم :

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

وصدق الله إذ يقول : ﴿**ومَن أحسَنُ قَولاً مِّمَّن دَعا إلى اللهِ وعمِلَ صالِحاً وقالَ إنَّني مِن المُسلِمينَ**﴾ [فصلت : ٣٣] .

وإنما كان لهذا القول : ﴿**إنَّني مِن المُسلِمينَ**﴾ قيمة ، لأنه يقوله معتزاً مغالياً بمبدئه ، مباهياً بدعوته ، كما قال الله تعالى لرسوله : ﴿**قُل إنَّني هَدانِي ربِّي إلَى صِراطٍ مُستَقيمٍ دِيناً قِيماً مِّلَّةَ إبْراهيمَ حَنيفاً وما كانَ مِن المُشْرِكينَ * قُلْ إنَّ صَلاتِي ونُسُكي ومَحْيايَ ومَماتِي لِلَّهِ ربِّ العالَمينَ * لا شَريكَ لَه وبِذَلِكَ أُمِرتُ وأَنا أَوَّلُ المُسلِمينَ**﴾ [الأنعام : ١٦١- ١٦٣] .

ونريد من العربي شيئاً آخر ، وهو الاعتزاز بلغته ، لغة القرآن والحديث والثقافة الإسلامية ، وأن يعمل على أن تكون لغة الحياة ، ولغة العلم ، ولغة الثقافة ، وقد كانت لغة العلم الأولى في العالَم كلّه لعدة قرون ، فلا يجوز أن تعجز اليوم عما قامت به بالأمس .

* *

● **العودة إلى الأصول :**

وثالث ما تتطلبه منا الأصالة ـ إذا كنا أصلاء حقّاً ـ أن نعود إلى أصولنا وجذورنا العقدية والفكرية ، والأخلاقية ، نستمسك بعراها ، ونتشبث بأهدابها ، ونحوّل اعتزازنا النظري والعاطفي إلى سلوك عملي .

إن الاعتزاز مطلوب ولا شك ، ولكنه يصبح فاقد القيمة ، عديم الجدوى ، إذا لم يتحول إلى عمل .

بل إن الاعتزاز هذا يصبح ظاهرة مَرَضيّة إذا ظل مجرد كلام يُردَّد ، وشعارات تُرفع ، وصيحات تتعالى ، لسرد الأمجاد ، وتعظيم الأجداد ، ثم لا نفعل نحن شيئاً ، ولا نخطو خطوة إلى الأمام ، وكثيراً ما تمثلنا بقول الشاعر :

كن ابن مَن شئتَ واكتسب أدباً يغنيكَ محمودُه عن النَّسَبِ

إن الفتى مَن يقول : هأنذا ليس الفتى من يقول : كان أبي!

وَإِنَّا نخشى أن يقول لنا قائل ، ونحن نفخر بمناقب آبائنا ومآثر أسلافنا ـ ما قاله شاعر آخر :

لئن فخرتَ بآباءٍ ذوي حَسَبٍ لقد صدقتَ، ولكن بئسما ولدوا!

ماذا يغنينا أن نتحدث عن أبي بكر الصِّدِّيق ، وليس لنا قوته ويقينه ؟

وماذا يغنينا أن نتحدث عن عمر الفاروق ، وليس لنا زهده وعدله ؟

وماذا يغنينا أن نتحدث عن عثمان ذي النورين ، وليس لنا حياؤه وبذله ؟

وماذا يغنينا أن نتحدث عن عليّ المرتضى ، وليس لنا شجاعته وعلمه ؟

وماذا يغنينا أن نتحدث عن الصحابة الكرام ، ونحن لا نتخلق بأخلاقهم ولا نقتفي آثارهم ؟

أو نتحدث عن الأئمة المجتهدين ، ولا نجتهد كما اجتهدوا ، ولا نقول الحق كما قالوا ، ولا نتقي الله في علمنا كما اتّقَوْه ، ولا نتعلم منهم فقه الخلاف إذا اختلفوا ، وأدب الحوار والمناظرة إذا تحاوروا وتناظروا ؟!

ونتحدث عن إنجازات الحضارة الإسلامية ، ومنهجها العلمي الاستقرائي التجريبي ، وأن الأوروبيين أخذوه عنها ، واقتبسوه منها ، ولكننا لا ننجز مثل ما أنجزوا ، ولا بعض ما أنجزوا ، كأن مجرد الاختيال والفخر بحضارتنا السالفة يجعلنا نحن متحضرين بالوراثة!

إنا ـ للأسف ـ نكثر الكلام ، ونُقلّ العمل ، ونكثر الحزّ ولا نقطع ، وحسبنا أن يسمع الناس منا جعجعة ولا يرون منا طِحناً .

أخشى أن ينطبق علينا ما قال بعض السَّلَف : «أنتم في زمن كثير فقهاؤه ، قليل خطباؤه ، كثير معطوه ، قليل سؤّاله . العمل فيه خير من العلم . وسيأتي عليكم زمان قليل فقهاؤه ، كثير خطباؤه ، قليل معطوه ، كثير سؤّاله ، العلم فيه خير من العمل» .

ويبدو أننا نحن في هذا الزمان الذي كثرت فيه «الخطابة» وقلّ فيه «الفقه» وكثر «السؤال» وقلّ «العطاء» وقُدِّم فيه «العلم» على «العمل» . مع أن العلم في الإسلام إنما يُراد للعمل ، فلا معنى لعلم لا يثمر عملاً ، وعلم بلا عمل ، كشجر بلا ثمر .

والحق أن الرسوخ في العلم لا يُتصور أن يكون بغير ثمرة . إنما الخطر في «صورة» العلم ، أو قشور العلم ، الذي يتمثل في الثرثرة والتفيهق دون أن يكون وراءه فقه أو بصيرة .

ما قيمة أن يحفظ المرء القرآن الكريم عن ظهر قلب ، وربما يقرؤه بالقراءات السبع أو العشر ، ولكن تفكيره ليس قرآنيّاً ، وخُلُقه ليس قرآنيّاً ، وحياته أبعد ما تكون عن القرآن ؟

ما قيمة أن يحفظ الإنسان صحيحي البخاري ومسلم ، أو الكتب الستة أو التسعة أو الأربعة عشر[1] ، ولكنه لا يتأدب بأدبها ، ولا يهتدي بهداها ، ولا ترى أثراً بها في صلته بالله ولا علاقته بالناس ؟

هل هو إلا نسخة زادت من هذه الكتب ؟

وما يقال عن الإنسان الفرد يقال عن الجماعة والأُمة .

ما قيمة أن يكون لدى الأمة تراث حافل ، وكنوز من الثقافة

(١) المقصود بالتسعة : الستة مع إضافة موطأ مالك ومسند أحمد وسنن الدارمي . أما الأربعة عشر فيضاف إلى التسعة : مسند البزار وأبي يعلى ومعاجم الطبراني الثلاثة .

والمعرفة لا تُقدَّر بملء الأرض ذهباً ، ولا تملك أُمة من الأمم عُشر معشار ما تملك من تراث ثقافي . . ومع هذا لم تُحوِّل هذا التراث إلى حاضر معيش ، يسري في كيانها ، ويتغلغل في وجودها الظاهر والباطن ، ويتفاعل مع كل ذَرَّةٍ فيها ، فتمتصه وتهضمه وتتمثله ، ويغدو جزءاً من حياة يومها ، بعد أن كان جزءاً من أمسها . لقد ذمَّ الله بني إسرائيل حين لم يعملوا بما علموا ، وقال لهم : ﴿**أَتأْمُرونَ النّاسَ بالبرِّ وتَنْسَونَ أنفُسَكم وأَنتم تَتْلونَ الكِتابَ أفَلا تَعقِلونَ**﴾ [البقرة : ٤٤] .

وضرب لهم مثل الحمار تبشيعاً لموقفهم مما حُمِّلوه ولم يقوموا بحقه : ﴿**مَثَلُ الذينَ حُمِّلوا التوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلوها كمَثَلِ الحِمارِ يَحمِلُ أَسفاراً بئسَ مَثَلُ القَومِ الذينَ كَذَّبوا بآياتِ اللهِ واللهُ لا يَهْدِي القَومَ الظّالِمينَ**﴾ [الجمعة : ٥] .

ومن الناس مَن يخاف من كل كلمة فيها «عودة» أو «رجوع» ـ ولو كان هو «الرجوع» إلى الله عَزَّ وجَلَّ ـ لأن العودة في رأيهم تعني السير إلى الخلف ، وهم يتطلعون أبداً إلى الأمام .

ولكن العودة ، ولو كانت سيراً إلى الخلف ، تكون مطلوبة ، بل لازمة ، إذا كان السير إلى الأمام لا يؤدي إلى الهدف المنشود . ما معنى أن تسير إلى الأمام مغرِّباً ، وهدفكَ مشرِّق ؟ إن كل خطوة إلى الأمام تبعدك عن هدفك ، وتضيع جهدك في غير طائل ، بل في عكس ما تريد . والحزم كل الحزم ، والعقل كل العقل هنا : أن تقرر العودة ، وتسير إلى الخلف ، لأنك ابتداءً مشيت في الطريق الغلط ؛ وإلا كان الأمر كما قال الشاعر :

سارت مشرِّقة وسِرْتُ مُغرِّباً شتّان بين مُشرِّقٍ ومُغَرِّبِ!

وإذا سار الإنسان في طريق فوجده مسدوداً ، ألا يعود متجهاً

إلى الوراء ، ليبحث عن طريق آخر ؟

وإذا وجد أمامه حفرة لا يستطيع تخطيها ، أو وجد علامة «ممنوع المرور» ، من هذا الاتجاه ، ألا يتراجع ويغير طريقه ؟

لماذا نكره «العودة» أو «الرجوع» إذا كان من ورائه تصحيح اتجاه ، أو تقويم خطأ ، أو تقريب من هدف ؟

ومثل كلمة «العودة» تأتي كلمة «الأصول» ، وأصل الأصول هو القرآن وما يبينه من السُّنّة ، وقد أصبحت كلمة «الأصول» اليوم كلمة مخوفة ، والنسبة إليها ـــ الأصولي أو الأصولية ـــ نسبة ترتعد منها الفرائص ، وتصطك لها الأسنان ، وتقشعر منها الأبدان . وغدت كلمة «الأصولية» مقترنة بكلمات أخرى تكوِّن اليوم «قاموس» التخويف من الإسلام وصحوته ويقظة أُمته . من هذه الكلمات الشقيقة : التطرف ، والتعصب ، والسَلَفية ، والإرهاب .

وينبغي ـــ نحن دعاة الوسطية الإسلامية ـــ ألا ترهبنا هذه الكلمات التي يتخذون منها سيوفاً يسلّونها أمام أعيننا ، ملوّحين بها ، حتى نفرّ مذعورين ، أونهرب مختفين ، وندع المجال لهم وحدهم ليعربدوا ويفسدوا ، كما قال الشاعر :

خلا لكِ الجو فبيضي واصفري ونقّري ما شئتِ أن تنقّري!

ينبغي أن يكون موقفنا ما عبَّر عنه الإمام الشافعي رضي الله عنه قديماً ، حين دافع عن آل البيت ، فاتُّهم بالرفض ـــ أي التشيع ـــ فقال :

إن كان رفضاً حبُّ آل محمد فليشهد الثقلانِ أنّيَ رافض!

ونحن نقول : إن كانت العودة إلى أصول الإسلام ، والدعوة إلى تطبيق شريعته ، والاحتكام إلى كتابه وسُنّته ، والمناداة بوحدة أُمته ، أصولية عندكم ، فنحن أول الأصوليين ، وأنا أقول هنا : اللّهم

أحييني أُصوليّاً ،وأمتني أُصوليّاً ، واحشرني في زمرة الأصوليين!

إن أول ماندعو إليه تجاه هذه الكلمات الشائعة وأمثالها هو : تحديد المفاهيم ، حتى لا تُتْرَك هذه الكلمات والمصطلحات هلامية قابلة لأكثر من تفسير ، وأكثر من مدلول ، وكل مَن شاء يفسرها بما شاء ،وفقاً لهواه ، أو تبعاً لمذهبه ، وبهذا تضطرب المعايير ، ويخبط الناس خبط عشواء .

* *

● إحياء السَّلفية المجددة :

ومما يكمل معنى العودة إلى الأصول والجذور : الحرص على التشبع بروح السَّلَف الصالح لهذه الأمة . وعلى رأس السَّلَف الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، وإحياء منهجهم في فقه أحكام الله في شرعه ، وسننه في خلقه .

وأؤكد هنا أن الذي نريده : منهج السَّلَف الكلّي ، وليس أقوال السَّلَف الجزئية ، وفرق كبير بين الأمرين .

منهج السَّلَف يعني : طريقتهم الكلية في فهم الدين والعمل به ، والعمل له .

ومنهجهم ـ كما يبدو من استقراء أحوالهم وأقوالهم وأعمالهم ـ هو النظر إلى جوهر الدين لا إلى شكله ، وإلى مقاصد الشريعة لا إلى حرفيتها ، وإلى روح العمل لا إلىمادته ، وتغليب اليُسر على العُسر ، والتخفيف على الإعنات ، ما يبدو ذلك في مسلك الخلفاء الراشدين المهديين ، الذين أُمِرنا أن نتبع سُنّتهم .

أما الأقوال الجزئية ، فهذه تتأثر بظروف الزمان والمكان والعوائد والأحوال . وهي تتغير بتغير موجباتها .

ولهذا قد ندع بعض أقوال السَّلَف ، لأنها كانت ملائمة لهم ،

ولم تكن ملائمة لنا ، مثل الجهاد بالخيل ، وإن ورد ذكرها في القرآن العزيز والأحاديث الصحاح ؛ فقد غدت خيل العصر المصفحات والدبابات والمجنزرات .

ومثل ذلك إذا أفتوا أو قضوا وفق معارف عصرهم ، مثل أقوالهم في مدة الحَمْل ، التي وصلها بعضهم إلى أربع سنوات أو خمس أو سبع!!

إن السَّلَفية الحقة لا تعني أن نسير سير السَّلَف في الشكليات والجزئيات ، المتطورة بتطور العادات .

لا يعني اتباع منهج السَّلَف أن نجلس على الأرض كما كانوا يجلسون ، وأن نأكل باليد كما كانوا يأكلون ، وأن نركب الجمل في الأسفار كما كانوا يركبون ، وأن نبني دورنا باللَّبِن كما كانوا يبنون .

وما أظن أحداً عاقلاً يقول بمثل هذا إلا من باب التشبه بالرجال ، وتوطين النفس على الزهد في الدنيا . ولا بأس بهذا ، لتربية النفس ، والسمو بالروح ، ابتغاء رضوان الله تعالى .

وربما وُجِدَ في محيط الصحوة الإسلامية اليوم مَن يتشدد في تقصير الثوب ، أو إطالة اللحية ، أو لبس النقاب ، وذلك مهمّ في هذه المرحلة ؛ لأنه من مظاهر التميز ، ودلائل التحدي ، وعلامات التحرر من رواسب عهد الاستعمار ، وما خلف من أفكار ومشاعر وأنماط من السلوك .

بَيْد أن الخطأ أو الخطر يتمثل في التشديد والإلحاح على هذه المظاهر ، واعتبارها هي لُبَاب الدين ، وتأثيم مَن يرى رأياً آخر فيها ، وتصنيف الناس بين الولاء والبراء على أساسها .

إن السَّلَفية الحقة ـ كما بيَّنتُ في بعض ما كتبت[1] ـ لا تكون إلا مجددة ، كما أن التجديد الحق لا يكون إلا سَلَفيّاً . وهذا ما أثبته التاريخ .

فابن تيمية ومدرسته كانوا سَلَفيين ، وكانوا مُجدِّدين حقّاً ، وأفكارهم التجديدية لا يجحد بها إلا مكابر .

والسيد رشيد رضا ومدرسته في عصرنا سَلَفيون مجدِّدون ، بلا جدال .

اتباع منهج السَّلَف يوجب علينا أن نجتهد لعصرنا كما اجتهدوا لعصرهم ، وأن نفكّر بعقولنا لتنظيم حياتنا كما فكّروا هم بعقولهم ، وأن نراعي زماننا وبيئتنا وأعرافنا وأحوال عيشنا ، إذا أفتينا أو قضينا أو بحثنا ، أو تعاملنا مع أنفسنا أو مع الآخرين ، كما راعوا هم كل ذلك ، وأن نقتبس من غيرنا ما ينفعنا كما اقتبسوا ، وأن نبتكر في أمر دنيانا كما ابتكروا .

إن عمر بن الخطاب غيَّر رأيه في بعض المسائل ، وقضى فيها في عام برأي ، وفي العام التالي برأي آخر ، ولم ير في ذلك حَرَجاً ، وقال : «ذلك على ما علمنا ، وهذا على ما نعلم» .

ولما روجع في مسألة من مسائل الميراث تتعلق بالإخوة الأشقاء والإخوة لأم ، وقاله له الإشقاء الذين حُرِموا حسب القواعد : هب أن أبانا كان حماراً ـ أو حجراً في اليمِّ ـ ألسنا من أم واحدة ؟! لم يملك إلا النزول على رأيهم ، وسنَّ بذلك سُنَّة الاستحسان ، وهو الخروج من صرامة القواعد إلى مرونة اعتبار المصالح ورعاية المقاصد .

وعمر بن عبد العزيز قال : تحدث للناس أقضية ـــ أحكام وعقوبات ـ بقدر ما أحدثوا من فجور!

---

(١) كتابي «الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي» تحت عنوان «الجمع بين السلفية والتجديد» .

إن السَّلَفية ظُلِمت من خصومها وكثير من أنصارها ، على السواء .

فخصومها صوّروها جموداً وتزمّتاً وإعناتاً ، ووقوفاً عند ظواهر النصوص ، وأقوال الأقدمين ، وخصوصاً ابن تيمية ومدرسته الحنبلية . فالسَّلَفية عندهم لحية طويلة ، وثوب قصير ، ونقاب على وجه المرأة ، وحرب على أهل التأويل والمخالفين بصورة عامة .

وقد ساعدهم على تثبيت هذه الصورة بعض دعاة السَّلَفية الذين اهتموا بالشكل أكثر من الجوهر ، وبالجزئيات أكثر من الكليات ، وبالمختلف فيه أكثر من المتفَق عليه ، واعتبروا رأيهم هو الصواب الذي لا يحتمل الخطأ ، ورأي مَن خالفهم هو الخطأ الذي لا يحتمل الصواب .

إني معجب بالمدرسة السَّلَفية التجديدية التي تتمثل في شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم ، ولكن أخالفهما في بعض القضايا . وأنا بهذا أطبق ـ في واقع الأمر ـ منهجهما ، فقد دَعَوَا إلى الاجتهاد لا التقليد ، ولو قلّدتهما لخالفتُ منهجهما .

* *

● **الانتفاع الواعي بتراثنا :**

ومن دلائل الأصالة : أن نجتهد في الانتفاع بتراثنا الغني ، والغوص في خضمه الزاخر ، لاستخراج لآلئه وجواهره ، في الدين واللغة والأدب والعلم والفن ، وسائر المواريث الثقافية البنّاءة ، التي خلفها الآباء للأبناء ، والأجداد للأحفاد .

ولا يُتصور من أُمة عريقة في الحضارة والثقافة أن تهمل تراثها وتاريخها الأدبي والثقافي ، وتبدأ من الصفر ، أو من التسول لدى الغير ، فهذا لا يقبله لنفسه فرد ولا جماعة ؛ لأن تسوّل الأغنياء رذيلة تنكرها الأخلاق ، وجريمة يعاقب عليها القانون .

لكن كلمة «التراث» مثل كلمات أخرى كثيرة في هذا المجال ، كثيراً ما أُسيء فهمها ، ووُضِعتْ في غير موضعها . حيث لم يتحدد المراد منها تحديداً يزيل اللبس والغشاوة عنها .

ذلك أن التراث يحتوي الحق والباطل ، والصواب والخطأ ، والسمين والغث ، كما لا يخفى على كل مَن درس شيئاً من هذا التراث . فما المراد بالانتفاع به هنا ؟

لقد حفل التراث بالطيب من القول ، والجيد من العلم ، كما امتلأ بالخبيث والرديء .

حتى الكتاب الواحد ، تجد فيه حقائق سبقت الزمن ، وأباطيل كأباطيل العجائز .

وتجد العالِم الواحد يحلّق كثيراً فيبدع ، ويهبط أحياناً فيخرّف ، أو على الأقل يقبل الخرافة ويصدقها .

كنت أقرأ في تاريخ الطبري ، وهو إمام جليل في التفسير والحديث والفقه والقراءات وغيرها ، فأجده يقبل روايات يرفضها العقل والمنطق ، ولكنه يعتذر إلينا بأنه أدى إلى مَن بعده ما أداه إليه مَنْ قبله ، فهو ناقل وليس بمستنبط ، وحسبه أنه أسند كل رواية إلى قائلها ، وإن لم يتعرض للسند بتعديل ولا تجريح ، كما فعل في كتب الفقه والحديث .

وقد رأيته يرجح أن زمان الدنيا منذ خلق الله آدم إلى أن تقوم الساعة سبعة ألاف سنة ، وروى أثراً في ذلك عن ابن عباس ، وأيّد ذلك بآثار وأحاديث أخرى .

وهذا وأمثاله إنما هو من الإسرائيليات التي أشاعها أمثال كعب الأحبار ووهب بن منبه ، وربما نقله عنهم ابن عباس إن صح ذلك عنه ، وما أظنه صحيحاً .

ولا يكاد يسلم مفسر أو محدِّثٌ أو فقيه أو متكلم أو فيلسوف ، من أقوال وآراء يراها بعقله أو ينقله عن غيره ، أثبت العلم ومقرراته اليوم أنها من جملة الأساطير .

ومن ذلك كلام الفلاسفة الكبار عن العناصر الأربعة ، أو عن الأفلاك ، أو عن شكل الكون ، ومركز الأرض منه ، أو غير ذلك ، مما أبطلته علوم العصر ووثباتها الهائلة ، حتى غدا تلميذ المدرسة يعرف عن الأرض والأفلاك أكثر وأصح مما كان يعرفه الفلاسفة العظام المشاهير .

وفي التراث أشياء لم يثبت خطؤها ، ولكن لم تثبت جدواها ، أو لم تعد الحاجة إليها باقية ، كما كانت من قبل ؛ وذلك مثل بعض مباحث علم الكلام المتفلسف ، كالمواقف للإيجي ، وشرحه للجرجاني ، وشرح المقاصد للتفتازاني ، والطوالع للبيضاوي وأمثالها . فهذه المباحث العميقة المجهدة ، لم تعد الحاجة إليها قائمة ، ولم تعد تخاطب الناس بلسان العصر ، وبعض مباحثها أمسى غير ذي موضوع ، وبعضها تحاوزه العلم أو أبطله . وينبغي وضع علم كلام آخر يُعبِّر عن عصرنا ، ويواجه تياراته ، ويحل مشكلاته ، يكون عمدته القرآن والعلم الحديث .

وفي علم الفقه مباحث مستفيضة عن العتق وما يتصل به من أبواب المدبر وأم الولد والمكاتب وغيرها ، مما لم تعد الحاجة إليه قائمة أيضاً . وفيه أقوال تحمل طابع زمانها ومكانها ، نجمت في عصور التقليد ، لا تلزمنا اليوم في شيء ، إلا من باب الدراسة التاريخية .

وفي علم التصوف شطحات ونتوءات في الفكر والتصور — كالحلول والاتحاد — تناقض صفاء التوحيد الإسلامي ، وأخرى في

السلوك والعمل ـ كالمبالغة في الزهد والتوكل ـ تنافي وسطية الخُلُق الإسلامي .

وفي كتب الأدب والشعر أشياء تجاوزت الدين والخُلُق والعُرْف والذوق ، كالغزل في الذكور ، والحكايات الهابطة .

وكل هذا تراث ، فهل هذا هو المقصود من التراث الذي أقيمت مراكز ومؤسسات وإدارات لإحيائه ونشره وتقريبه للناس ؟

وإذا قلنا : الانتفاع بالتراث ، فهل يعني هذا أن نقبله كله بحقه وباطله ، وعلمه وجهله ؟

إننا لسنا مع الذين يضفون القدسية أو العصمة على كل ما مضى ، ولا مع خصومهم الذين ينأون بجانبهم عن كل موروث ، لا لشيء إلا لأنه قديم ، ولكن لا بد لنا من التخير والانتقاء . وخصوصاً في مجال التربية والتثقيف ، أو مجال الدعوة والتوجيه ، أو مجال الحكم والتشريع . ولهذا أشرنا من أول الأمر : أن المطلوب هو الانتفاع الواعي بالتراث ، لأن الوعي هو الذي يميز بين ما يصلح وما لا يصلح .

* * *

● **الإسلام فوق التراث :**

وأود أن أنبه هنا على حقيقة هامة يغفلها بعض المعاصرين من الكتّاب العلمانيين ، أو يفهمونها على غير وجهها ، وهي : الخلط بين الإسلام والتراث ، خلطاً ـ أحسبه مقصوداً ـ بحيث يوهم أن أحدهما يعني الآخر . وهذا ليس بصحيح ؛ فالإسلام ليس مجرد تراث يؤخذ منه ويترك ، شأنه شأن شعر امرئ القيس ، أو أبي نواس ، أو كتاب الأغاني أو ألف ليلة وليلة .

إن اعتبار الإسلام العظيم من جملة التراث تهوين من شأنه وحطٌّ

من قدره ، وتضليل للقارئ أو السامع عن حقيقته . والواجب أن يعبّر عن الإسلام باسمه الصريح ، كما ارتضاه الله لنا : ﴿**اليَومَ أَكمَلتُ لَكم دِينَكم وأَتْمَمتُ عَلَيْكم نِعمَتِي ورَضِيتُ لَكمُ الإسلامَ دِيناً**﴾ [المائدة : ٣] .

إن التراث ـ كما بيّنا ـ كلمة واسعة ، تشمل الجدّ والهزل ، والصواب والخطأ ، والحقيقة والخرافة ، والصدق والكذب ، والعلم والجهل ، والروائع والهوابط ، من أصول الشافعي وتصوّف الغزالي ، إلى مجون امرئ القيس وخمريّات أبي نواس ، وشعر الغزل في الذكور ، والحكايات المرذولة ، والإسرائيليات المردودة ، والأحاديث الموضوعة ، والآراء الفاسدة . فأين هذا من وحي الله تعالى الذي يتمثّل في الإسلام ؟!

وإذا كان بعضنا يصرّ على أن يدخل الإسلام في التراث ، فإن أول واجب هنا هو التفريق بين المستوى الإلَهي والمستوى البَشري من التراث ، والأول هو المعصوم الذي دلّ عليه محكم القرآن والسُّنّة . وهو الذي نطلق عليه : الإسلام ؛ وهو الذي يُتلقى بالسمع والطاعة : ﴿**وما كانَ لِمُؤمِنٍ ولا مُؤمِنَةٍ إذا قضَى اللهُ ورَسولُه أَمراً أنْ يَكونَ لَهمُ الخِيَرَةُ مِن أَمرِهِمْ**﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

أما الثاني فهو صنعة العقل البَشري في مجالات العلم والفلسفة والأدب والفن ، بفروعها المختلفة ، وألوانها المتنوعة ، وفيها ما في كل عمل إنساني من قصور البَشر ، وأهواء البَشر ، وأوهام البَشر ، وتأثرهم بالزمان والمكان ، وشتّى الظروف والمؤثرات المادية والمعنوية .

ويدخل في هذا عمل العقل الإسلامي في فهم الجانب المعصوم مما قد يسمى التراث ؛ وهو ما يشمل علوم التفسير ، وعلوم الحديث ، والفقه وأصوله ، والكلام ، والتصوف ، وهي علوم تتسع مسائلها ـ أو

أكثرها ـ للأخذ والرد ، والترجيح والتضعيف .

ولا غرو أن تعددت المدارس والمذاهب : في التفسير ما بين الرواية والدراية ، وفي الفقه ما بين أهل الرأي وأهل الأثر ، ومدرسة الظواهر ومدرسة المقاصد . وما بين طريقة المتكلمين ، وطريقة الحنفية في أصول الفقه ، وطريقة مَن يجمع بينهما . وفي الكلام ما بين المقدّمين للنقل على العقل ، وخصومهم ، وفي التصوف ما بين مدرسة التصوف التربوي الأخلاقي ، ومدرسة النظريات الحلولية والاتحادية .

إن الإسلام ـ المتمثل في محكمات القرآن والسُّنَّة ـ فوق التراث ، بل هو الحَكَم على التراث بالقبول أو الرد ، فهو المعيار الذي لا يخطئ ، والهادي الذي لا يضل .

ومع هذا المعيار النقلي معيار آخر عقلي ، تُرَد إليه الأمور بجوار الوحي ، وهو «الميزان» المذكور في قوله تعالى : ﴿**اللهُ الذِي أَنزَلَ الكِتابَ بالحَقِّ والمِيزانَ**﴾ [الشورى : ١٧] ، وقوله : ﴿**لقَدْ أَرسَلْنا رُسُلَنا بالبَيِّناتِ وأَنزَلْنا مَعَهمُ الكِتابَ والمِيزانَ لِيَقومَ الناسُ بالقِسطِ**﴾ [الحديد : ٢٥] .

وبهاتين الآيتين استدل الفقهاء الذين يحتكمون إلى القياس ، مبينين أن النص الصريح لا يناقض القياس الصحيح ، وبعبارة أخرى : لا تناقض بين صحيح المنقول وصريح المعقول .

يقول الإمام ابن القيم : «إن الله أنزل الكتاب والميزان ، فكلاهما في الإنزال أخوان ، وفي معرفة الأحكام شقيقان ؛ فلا تتناقض دلالة النصوص الصحيحة ، ولا دلالة الأقيسة الصحيحة ، بل كلها تتصادق متناصرة ، يصدق بعضها بعضاً ، ويشهد بعضها لبعض» (١) .

* * *

(١) إعلام الموقعين : ٣٦٩/١ ، بتحقيق عبد الرحمن الوكيل ، نشر دار الكتب الحديثة .

● **قراءة مستبصرة للتراث :**

وبهذا نستطيع أن نقرأ التراث قراءة مستبصرة ، نقرؤه ونحن نقف على أرض صُلْبة ، نقرؤه ومعنا هاديان من عند الله : هادٍ من خارجنا ، وهو الوحي ، وهادٍ من داخلنا ، وهو العقل .

نقرأ شعر الجاهليين إن شئنا ، فنرفض منه نَضْح الوثنية ، ومجون الجاهلية ، وحميتها ، ونأخذ بعد ذلك ما وسعنا الأخذ ، من روائع التصوير ، وبدائع التعبير ، عن النفس والطبيعة والحياة ، ونقتبس غوالي الحكم ، التي سارت مسير الأمثال ، كقول طرفة في معلقته :

إذا لقوم قالوا : مَن فتىً؟ خلتُ أنني عُنيتُ، فلم أَكسلْ، ولم أتبلَّدِ

وقوله :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار مَن لم تزوِّد

ونقرأ شعر الإسلاميين ، فنجد الكثير الطيب مما ينفع الناس ويمكث في الأرض ، ونجد القليل الضار ، من المديح المسرف والهجاء المقذع ، والعصبية القَبَلية ، والمجون المكشوف ، والشك المتحيّر ، وما أشبه ذلك ، فنعرض عنه .

نقرأ أبا العلاء ، ونستمتع بروائع شعره ، وهو يغوص في أعماق النفوس ، وأغوار الحياة والمجتمع ، وينقدها ويسخر منها ، كقوله :

ولما رأيتُ الجهل في الناس فاشياً تجاهلتُ حتى ظُنَّ أنيَ جاهلُ

فوا عجباً كم يَدَّعي الفضلَ ناقصٌ ووا أسفاً كم يدَّعي النقصَ فاضلُ!

ولكنّا لا نأخذ نظرته التشاؤمية في مثل قوله :

هذا جناه أبي عليّ وما جنيتُ على أحدِ!

وقوله :

وإذا أردتم للبنين سعادةً فالخيرُ أجمعُ تركُهُمْ في الأظْهُرِ!

يعني : قطع النسل وعدم الإنجاب !

نقرأ ابن سينا ونقتبس منه ، فيلسوفاً وعالماً وطبيباً ، ولكنّا ننقد ما حاد فيه عن منهج القرآن والسُّنّة حياداً بواحاً عندنا فيه من الله برهان ، في «إشاراته وتنبيهاته» أو في «شفائه» أو في «رسائله» .

بل نقرأ حُجَّة الإسلام الغزالي وننهل من تراثه الرحب ، ونحْذَرُ من بعض ما تضمنت كتبه من غلو الصوفية ، أو من معارف أثبت علم العصر بطلانها ، أو ما استند إليه من الأحاديث الواهية والموضوعة والتي لا سند لها .

ونقرأ شيخ الإسلام ابن تيمية ، وما خلف من كتب كبيرة ، ورسائل متوسطة وصغيرة ، وفتاوى متنوعة ، ومباحث مستفيضة في الأصول والفروع ، والمعقول والمنقول ، فنغترف منها ، وننتفع بها ، ولكنّا نخالفه فيما لا نقتنع به في العقليات والنقليات ، وفي بعض ما بالغ فيه ، كإنكار المجاز في القرآن واللغة ، وننقده كما نقد هو مَن قبله ، ونقول ما قال تلميذه الذهبي : شيخ الإسلام حبيبٌ إلينا ، ولكن الحق أحبُّ إلينا منه .

ونفعل ذلك مع النووي وابن القيم وابن حجر وابن الهمام وابن الوزير والقرافي والشاطبي وابن خلدون والدهلوي والشوكاني وغيرهم . نستفيد منهم ، ولكن نفكر كما فكّروا ، ونجتهد كما اجتهدوا .

نقرأ التفسير ، ونحذر من الإسرائيليات ، والأقوال الفاسدات .

ونقرأ الحديث ، ونحذر من الموضوعات والواهيات .

ونقرأ التصوف ، ونحذر من الشطحات والتطرفات .

ونقرأ علم الكلام ، ونحذر من الجدليات والسفسطات .

ونقرأ علم الفقه ، ونحذر من الشكليات والتعصبات .

نقرأ هذه العلوم كلها من مصادرها الأصلية ، ثم من مراجعها

الشارحة ، لنستلهمها ونستهدي بها ، ونستضيء من مشكاتها ، ونأخذ منها ما هو أرجح دليلاً ، وأهدى سبيلاً ، أي لتكون مناراً هادياً يسدد مسيرتنا ، لا قيداً ثقيلاً يغل حركتنا .

وإذا كان هذا موقفنا من التراث ذي الصبغة الدينية وعلومه المأثورة ، وهو موقف التخير والانتقاء ، بعد التحصيل والارتواء ، فمن باب أولى أن يكون هذا موقفنا من سائر معارف التراث العلمي والأدبي والفني .

وينبغي لنا أن ننهل من هذا التراث بكل معارفه ، وكل ألوانه ، وكل مدارسه ، وكل مذاهبه ؛ لا أعني الناشئة الصغار ، الذين ينبغي أن يُحْمَوا من السباحة في الأعماق خشية أن يغرقوا ، وإنما أعني أهل العلم وطُلاَّب التبحر والتعمق فيه . كما حكى الإمام الغزالي عن نفسه في كتابه «المنقذ من الضلال» ، وكما حكى الإمام أبو إسحاق الشاطبي عن نفسه في كتابه «الاعتصام»[1] .

لقد كان حَبْر الأُمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يحفظ الكثير من شِعر الجاهلية ، ويحتج به في تفسير القرآن ، كما رووا أنه كان يحفظ رائية ابن أبي ربيعة ، على ما فيها من مجانة مرذولة .

وكانت عائشة رضي الله عنها ، تحفظ الكثير من الشِعر الجاهلي ، وتستشهد به ، وتروي من قصص الجاهلية ، وقد روى البخاري وغيره عنها حديث الزوجات الاثنتي عشرة ، وما وصفت به كل واحدة زوجها ، وهو المعروف بحديث «أم زرع» ، وقد استمع الرسول ﷺ إليها ، وهي

(١) انظر : كلام الغزالي في كتابنا « الغزالي بين مادحيه وناقديه» ص ٢٦ ، ٢٧ ، وكلام الشاطبي في بحثنا «التربية عند الشاطبي» المنشور في «حولية كلية الشريعة» بجامعة قطر : العدد التاسع .

تحكي هذه القصص ، ولم ينكر عليها ، أو يضق بذلك صدراً .

إننا إذا تحصّنا بالكتاب والميزان ، خضنا لُجَج التراث ، دون أن نخشى الغرق أو الضياع : ﴿**وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ [آل عمران : ١٠١] .

* * *

● **قراءات متحيزة أو موجَّهة للتراث :**

ومن المتحدثين عن التراث : مَن يقرؤه ، أو يدعو إلى قراءته قراءة لا توصف إلا بأنها متحيّزة : تنحاز لبعض المدارس دون بعض ، ولبعض الاتجاهات دون بعض ، ولبعض الشخصيات دون بعض ؛ فهم يأخذون من التراث ويدعون ، ويحذفون منه ويُبقون ، وفق أهوائهم وميولهم الخاصة . وهم يفسرون ما يأخذونه ، كما يحلو لهم ، اتباعاً للهوى ، لا احتكاماً إلى كتاب أو ميزان مما أنزل الله : ﴿**اللهُ الذِي أَنزَلَ الكِتابَ بِالحَقِّ والمِيزَانَ**﴾ [الشورى : ١٧] .

مِن هؤلاء مَن ينحاز إلى «المدرسة الفلسفية » وخصوصاً «المدرسة المشّائية» الإسلامية ، التي جعلت أكبر همها التوفيق بين الفلسفة والدين ، ولكنها اعتبرت الفلسفة أصلاً ، والدين تبعاً ؛ فإذا تعارضا أُوِّلَ الدين ليتفق مع الفلسفة ويمثل هؤلاء الكندي والفارابي وابن سينا ومَن سار على دربهم .

ومنهم مَن ينحاز إلى «المدرسة الاعتزالية» ، ويعتبر المعتزلة هم «المفكرين الأحرار» في الإسلام . ويذرف الدموع السخينة على هزيمتهم الفكرية أمام أهل السُّنّة[1] ، بعد أن كانت لهم الدولة خلال عدة عقود . وحديث هؤلاء عن المعتزلة يوهم أنهم جماعة «عقلانية»

(١) انظر : تعليقنا على ذلك في كتابنا «المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسُّنّة» فصل «تقديم العقل على الشرع» ص ٣٣١- ٣٥٤ ، نشر مكتبة وهبة ، القاهرة .

محضة ، لا تذعن لنصوص الدين ، ولا تخضع لأحكام الشرع . وهو تصوير غير صحيح لموقف القوم ، وخصوصاً في مجال الفقه والأحكام العملية ، التي كثيراً ما تبعوا فيها المذهب الحنفي .

ومنهم مَن ينحاز إلى شخصيات معروفة دون غيرها ، مثل ابن رشد ، وابن حزم ، وابن عربي ، وابن خلدون . وكلامهم عن هؤلاء وأمثالهم يصوِّرهم بصورة «العقلانيين» الخلصاء ، الذين يرفضون النصوص إذا خالفت مقرراتهم العقلية .

وهذه قراءة متحيزة لهؤلاء الأعلام ، فكتبهم تدل بوضوح على أنهم ـ ككل المسلمين ـ لا يملكون أمام محكمات النصوص ، إلا أن يقولوا : سمعنا وأطعنا .

فابن رشد وابن خلدون كلاهما قاضٍ شرعي وفقيه مالكي ، وابن رشد هو صاحب «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» في الفقه المقارن ، الذي يتجسد فيه احترام المصادر والأدلة الشرعية كلها ، من الكتاب والسُّنَّة والإجماع والقياس .

وابن حزم وابن عربي كلاهما فقيه ظاهري ، يأخذ بظواهر النصوص وحرفيتها في مجال الفقه واستنباط الأحكام ، وإن كان على ابن عربي اعتراضات جمَّة في تصوفه الفلسفي .

ولكن هؤلاء العصريين يستنطقون تلك العقول الكبيرة ـ على اختلاف اهتماماتها وتخصصها ـ بما يحبون هم أن تنطق به ، لا بما نطقت به بالفعل ، فهم يريدونها مترجمة عنهم ، معبِّرة عن فكرهم ،

لا عن ذاتها وفكرها الخاص .

هؤلاء يستلهمون التراث الماضي ما يبررون به الواقع الحاضر . وهو ما لاحظه باحث جاد ـ د . فهمي جدعان ـ يرى أن عملية «الاستلهام» هذه ليست إلا عملية تسويغ لقيم الحاضر ، بإسقاط غطاء تراثي عليها ، وأن الذي يحدث عمليّاً أن الحاضر هو الذي يفرض قيمه ، ويلزم بها[1] .

ومثل هؤلاء مَن يدعو إلى «إعادة قراءة التراث» وفق مناهج معاصرة ، ارتضاها أصحابها ، تبعاً للمدارس التي ينتمون إليها .

وهذا التوجه شائع عند المثقفين الذين مارسوا خبرة ما بمناهج العلوم الإنسانية الحديثة ، وبالفلسفات المعاصرة الغربية ، فكل واحد من هؤلاء يقرأ التراث وفقاً لمنهجه المحدد ، ويفسره ويوجهه تبعاً لإطاره المرجعي ، فهذا يقرؤه قراءة عقلانية ، وثانٍ قراءة لسانية ، وثالث قراءة مادية ، ورابع قراءة براجماتية ، وقراءات أخرى معرفية ووظيفية وبنيوية ، إلى آخر التصنيفات التي يتعالم بها أسارى الفكر الغربي بمختلف تيّاراته . والتي تحاول «أدلجة» التراث ، وتوظيفه لخدمة أفكار مدرسة معينة ، وتوجيهه توجيهاً قبْليّاً واضحاً ، فهي ليست قراءة للفهم ، وإنما للفعل والتأثير ؛ بل «للتثوير» عند بعضهم .

والحقيقة ـ كما يقول الدكتور جدعان ـ : أن هذه «الأدلجة» لم تكن تعني في نهاية التحليل إلاشيئاً واحداً ، هو : أن الحاضر عاجز

(١) انظر : نظرية التراث للدكتور فهمي جدعان ـ ص٢٦ ، طبع دار الشروق ، عمان .

ـ بإمكاناته وقدراته الكامنة والصريحة ـ عن إحداث التغيير المنشود. وأن التراث الذي يشد الناس إليه، هو الذي يملك القوة السحرية على التغيير، وذلك ـ بطبيعة الحال ـ بعد توجيه قراءته الوجهة التي تخدم الأهداف المنصوبة[1].

لقد رأينا باحثاً مثل الدكتور محمد أركون ينصب من نفسه حَكَماً على التراث، يحكم فيه كحكم نمرود «يحيي ويميت» فهو يُبقي منه ما يريد، ويحذفُ منه ما يريد، تحت ستار ادعاء عريض، هو: النقد أو التجديد. وهو يقول: «لا بد من وضع التراث ـ كله ـ موضع البحث والنقد والتقويم في ضوء الاكتشافات الحديثة». ولهذا نراه لا يكتفي بأن ينقد صحيحي البخاري ومسلم، بل يريد أن ينقد مصحف عثمان! أي المصحف الذي لا يعرف المسلمون غيره!

هكذا قال الدكتور أركون في ورقته التي قدَّمها إلى ندوة «التراث وتحديات العصر» عن «التراث: محتواه وهويته ـ إيجابياته وسلبياته»[2]، والتي كال فيها الإطراء للمستشرقين، وغمز كل العلماء والباحثين المسلمين، من المستقدمين والمستأخرين، حتى الأفغاني ومحمد عبده، اللذين يتهمهما بعض الناس بالإسراف في التجديد.

وبحق ما عقب به الدكتور جلال أحمد أمين حين قال: إنني أتعجب أشد العجب من أن بعض المعلّقين وصف ورقة الدكتور

(١) المصدر السابق ص ٢٨ وما بعدها.

(٢) انظر: الكتاب الصادر عن ندوة «التراث وتحديات العصر» ص ١١٥ وما بعدها.

أركون بأنها تمثل مساهمة في اتجاه تجديد التراث ، فإذا كان هذا تجديداً للتراث ، فكيف يا تُرَى يكون قتله أو تحقيره ؟![1] .

* * *

(١) المرجع السابق ص٢٠٣ ، وانظر : تعليقات المناقشين من ص ٢٠٠-٢٠٥ .

obeikandl.com